ذكرى السيد جمال الدين

للأســـتاذ محمود شلبي

أمم فى رجل ، وبركان ثائر يرمى بالحمم والنار ، وصورة حية فذة عجيبة تسمى من النور وإلى النور . رجل أقام العالم وأقعده ، وهز الشرق هزة عنيفة فأحيا العقول بعد مواتها ، فتنبه الغافل ونشط العاقل وخر الباطل ذليلاً خاشعاً إلى الأذقان

ذلكم يا صاحبي ، الأستاذ الفيلسوف السيد جمال الدين الأفغانى المتوفى صباح يوم الثلاثاء ٩ مارس سنة ١٨٩٧ ميلادية

ولد فى قرية (أسعد آباد) من قرى كنر سنة ١٢٥٤ هجرية ، وفى السنة الثامنة من عمره أجلس للتعليم وعنى والده بتربيته فأيد العناية به قوة فى فطرته ، وإشراق فى قريحته ، وذكاء فى مدركته ، فأخذ من بدايات العلوم ولم يقف دون نهاياتها

واستكمل الغاية من دروسه فى الثامنة عشرة من سنه ، ثم عرض له سفر إلى البلاد الهندية ، فأقام بها سنة وبضعة أشهر ينظر فى بعض العلوم الرياضية على الطريقة الأوربية الجديدة

ثم ذهب إلى مكة حاجا ، ثم عاد إلى بلاده ، ولم يمكث طويلاً حتى تاقت نفسه إلى الحركة فيمم وجهه شطر الهند وتلقته حكومتها بحفاوة وإجلال

وهبط مصر أربعين يوماً تردد فيها على الجامع الأزهر وخالطه كثير من طلبة العلم السوريين ومالوا إليه كل الميل ، ولكنه تعجل بالسفر إلى الآستانة

وصل الآستانة وهو مع ذلك بزيه الأفغانى : قباء ، وكساء ، وعمامة مجراء ؛ وحومت عليه لفضله قلوب الأمراء والوزراء ، وعلا ذكره بينهم وتناقلوا الثناء على علمه ودينه وأدبه ، وهو غريب عن أزيائهم ولغتهم وعاداتهم . وبعد ستة أشهر سمى عضواً فى مجلس المعارف فأدى حق الاستقامة فى آرائه وأشار إلى طرق لتعميم المعارف لم يوافقه على الذهاب إليها رفقاؤه

ودعى لإلقاء خطاب فى دار الفنون للحث على الصناعات ، فلبى بعد امتناع ، وما ألقى الخطاب حتى ثارت عليه ثائرة الرجعيين فصدر إليه الأمر بمغادرة الآستانة بضعة أشهر حتى تسكن الخواطر ويهدأ الاضطراب ثم يعود إن شاء ، ففارق الآستانة مظلوماً فى حقه ، مغلوباً لحدته ، وحمله بعض من كان معه على التحول إلى مصر

مال الشيخ إلى مصر ، فهوت إليه أفئدة من الناس ، وتحلق حوله طلاب المعرفة من كل صنف ، ثم وجّه عنايته لحل عقل الأوهام عن قوائم العقول ؛ فنشطت لذلك ألباب ، واستضاءت بصائر ، وحمل تلامذته على العمل فى الكتابة وإنشاء الفصول الأدبية والحكمية والدينية ، فاشتغلوا على نظره وبرعوا ، وتقدم فن الكتابة فى مصر بسعيه

وهنا اصطدم الحق بالباطل ، فنفس عليه الشيوخ مكانته ، وشغب عليه سفلة المتعلمين وهم شر من سفلة الجاهلين ، ولكنه واصل وثبته الفكرية وأشعل النار فى الهمم الخامدة ، وظل دائباً عاملاً حتى دعى من حيدر آباد إلى كلكته وألزمته حكومة الهند الإقامة فيها

ولما وضعت الحرب أوزارها ، أصعد إلى مدينة لوندرة وأقام بها أياماً قلائل ، ثم انتقل عنها إلى باريس وأقام بها ما يزيد على ثلاث سنين وافاه فى أثنائها الإمام محمد عبده .

هذا هو الرجل العجيب ، أنشأه القدر إنشاء ليكون الشعلة المقدسة فى الشرق ، فى زمان هبت فيه ريح الجهل تريد أن تطفئ نور الله .

ولقد أجمع على احترامه الغرب والشرق ، وشهدت له الآستانة وباريس وبطرسبرج بالعبقرية والغيرة والحمية على الدين .

ونظرة واحدة إلى حياة الرجل ، تدلنا على قوة شكيمته فى الحق ، وسلطته على دقائق المعانى وتحديدها وإبرازها فى صورها اللائقة بها كأن كل معنى قد خلق له ، يشد هذا وذاك قلب سليم ، وحلم عظيم ، وقوة اعتماد على الله لا يبالى ما تأتى به صروف الدهر . تتضافر هذه القوى الذهنية والقلبية والخلقية داخل بنيان الرجل ، فتندفع متعطشة إلى النور والحرية ، فيندفع البطل إلى طموحه كالأسد الوثاب ، ويتخطى العراقيل المكدسة فى طريقه حتى يذلل ما يبغى أو يرتقب بارقة تلوح .